من صور العباقرة

هانيبـــال

بقلم حسين مؤنس

لنكن على حذر حين نلتمس اخبار هانيبال ، فهذا رجل وكل أمره لأنصاف خصومه ، وترك تراثه فى رعاية أشد الناس عداوة له ، وتولى تقديمه إلى الناس أحفل الناس ببغضه ؛ فهو مظلوم من بوليبيوس ، مغضوب عليه من تيت ليف ، مهضوم الحق عند الكثرة الغالبة من رواة عصره وقضاة زمانه ، ولكنه برغم هذا كله بارز لا تحتاج عظمته إلى البينة ، ظاهر لا يعوز عبقريته البرهان ؛ وان الشهادة له لتبدر من الخصم حين يتخونه الحذر ، وإن فضله على أعدائه لتقوم عليه البينات والحقائق وإن أعوزته الألفاظ والعبارات ؛ وهذا بوليبيوس يتحدث عن آل سيبيو فيطيل الحديث ، ويكون قصارى ما يتأنق فيه من دلائل نبوغهم أنهم أخذوا فنون الحرب عن هانيبال ، وأن أشهرهم المعروف بالأفريقى أخذ عنه وتفنن لأساليبه وحاربه بها فى زاما . ولعل سبب هذه الخصومة هو أن الرجل كان شرقياً ، لا هو رومانى ولا إغريقى ، وإنما هو فينيقى عريق ، وكانت الخصومة مشبوبة فى ذلك العصر بين الشرق والغرب ، وكان الزمان قد استدار وصار اليوم للغرب ، ورفرفت راياته وخفقت بنوده ، حملها الاسكندر وخطفاؤه زماناً ثم تركوها للرومان ، وكان الفينيقيون قد ضاقت بهم الأرض فى المشرق فالتمسوا الرزق فى المغرب ، وأقاموا المراكز والمدن على شواطئ افريقية وأسبانيا وصقلية وجنوبى إيطاليا وفرنسا ، فلما نهض الرومان وجدوا الفينيقيين فى طريقهم أينما ساروا ، وكان مركز قيادتهم قد انتقل من صور فى المشرق إلى قرطاجنة فى المغرب ، ومن هنا كانت الخصومة بين روما وقرطاجنة ، ومن هنا كان تعصب مؤرخى الرومان على هانيبال ، ومن هنا كانت ضيعة قضيته عند القضاة ؛ فلنلتمس أخباره فى حذر .. ولنحاول أن نشهده عن كثب ، وأن نفضى اليه ونصاحبه حياته الحافلة بالأحداث ، الخصبة بالوقائع والبيانات

* * *

ها هو ذا فى مجلسه على شاطئ الرون ينظر إلى جيشه الكبير يعبر النهر صفاً طويلاً وقد طال به الجلوس وطال به الانصراف إلى هذا المشهد حتى لا يدرى أهذا مطلع النهار أم مقبل الليل ؛ وكيف له التمييز وهذه أيام ثلاثة بلياليها تقضت وهو فى مجلسه هذا شاخصاً إلى أجناده وفرسانه وقبيلته وهى تعبر النهر على مهل ؟ . . وأين له الراحة أو الانصراف عن التفكير وهو يعلم أن الرومان قد علموا بأمره وأنهم ساعون فى أثره مرسلون قوادهم خفافاً للحاق به والقضاء عليه ؟ . وهذه عيونه تنبئه بأن مارسلوس مضى فى الطريق اليه ، وإنه ليخشى ذلك كثيراً ، إذ كيف تكون العاقبة لو لحق به الرومان وهو يعبر النهر ؟ . إذاً لقضوا عليه فى يسر وهينة . ثم هذه عيونه تنهى اليه أن آل سيبيو يثيرون عليه الناقو ويقيمون عليه قيامة الشعب . فاذا متع الضحى فقد أقبل عليه رئيس فرسانه ينبئه بأن الجيش قد فرغ من العبور وأنه لم تبق فى الضفة الأخرى إلا شراذم من المشاة وأشتات من المؤن التى لا يؤذى ضياعها . هنالك ينهض الرجل الذى أجهده الأعياء وثقلت عليه قلة النوم ، ويأوى إلى فسطاطه . . . ويطلب النوم فيسرع اليه النعاس .. ولكنه على رغم ذلك مضطرب مايزال .. وان الذكريات لتسعى اليه فى الحلم فتروعه

هذا هو أبوه هملكار يخطو اليه رهيباً جليلا . . يذكره بعهده الذى قطعه على نفسه وهو ابن سنوات تسع ، وهذا صوت

فاما بذل وهو أليق بالهوى واما بعز وهو أليق بالملك (١)

وقد أخطأ من نسبهما إلى ابن الأحمر ، فقد أوردهما صاحب المرقص والمطرب (٢) وهو مصنف موجود قبل ابن الاحمر بألف وخمسمائة سنة . وهذا المعنى من البيتين واضح اتضاح الفسق نصف الليل فى ثمانى وعشرين من الشهر ، وضياء الباطل إذا جاءه الحق ، إن الباطل كان زهوقاً ، ولله در نجم الدين الكاسى دبيران حيث قال يخاطب الشريف الرضى :

وليس يصح فى الافهام شىء إذا احتاج النهار الى دليل (٣)

* * *

هذا مثال من هذه الرسالة العجيبة ، نقف عنده ، لانجاوزه الى القول فى البديع والعروض والقافية لأن المقال قد طال ، ونخشى أن يملّ القراء الكرام ؟

على الطنطاوى

(١) ابن سكرة شاعر بغدادى ظريف ، والشعر للملك تميم بن المعز

(٢) لأبى سعيد المغربى متأخر

(٣) نجم الدين متأخر عالم بالمقولات والشريف معروف والبيت للمتنبى

الصبي الصغير يتردد على سمعه واضحاً بيناً ، إنه يقسم أن يكون عدواً لدوداً لروما إلى الأبد

وها هو ذا يرى نفسه صبياً وفتى يافعاً ، ثم رجلا في مداخل الرجولة ، إنه ليمضي الوقت في قفار اسبانيا ووهادها ، لم ينصرف إلى شيء مما ينصرف إليه الشبان ، ولم يترك لنفسه فرصة للراحة أو الدعة ، وإنما اشتد على نفسه عشرين سنة كاملة حتى أوفى على الثلاثين ... حتى إذا اكتمل الأهبة ، فقد اتخذ سبيله إلى ايطاليا ، وكان الرومان قد أخذوا عليه سبيل البحر بعد أن قضوا على أسطول قرطاجنة ، ولم يبق له إلا أن يمضي فيخترق هذه الجاهل الجافة حتى يصل إلى سهول ايطاليا ؛ ولقد فصل عن قرطاجنة الجديدة وهو في تسعين ألفا فتهاوى منهم الآلاف في الطريق تعباً واجهاداً ... ولولا بقية من أمل معقودة بلواء فرسان نوميديا ، لأدركه اليأس وكر راجعاً إلى بلده...

هكذا كانت حياته : واقع أشبه بالحلم ، وحلم أشبه بالواقع ! إنه ينام ليحلم بحرب روما ، ويقوم ليمضي لخراب روما . ومضى أمامهم فمضوا من خلفه ، وهم أشد ما يكونون رهبة من هذا الذي يمضي بهم اليه ؛ إنهم ليشعرون الرهبة من هذه الجبال السامقة التي تطل عليهم وتنذرهم بالموت .. وأين لأبدانهم المتعبة أن تتوقل هذه النجاد الوعرة ، وأن تنحدر على هذه الصخور القاسية ؟ وأين لجسومهم العزم الذي يخوضون به هذه الركام المثلوجة التي تبهر عيونهم على قنن الجبال ؟.. ولكنهم لا يملكون لأمر قائدهم دفعاً ... بل هو لا يملك لأمر نفسه دفعاً . وإنه ليمضي ليوفي عهد أبيه لا يكاد يفطن إلى شيء مما حوله . فها هو ذا في مقدمة الجيوش يصعد في اعياء ويسير في عينة ، والجنود يتساقطون من حوله اجهادا ، والخيل تنبت من تحته نافقة ، وهو في طريقه لا يئبس .. حتى ينتهوا إلى السهول فينحدروا اليها سراعاً

هنا ترجع بنا الذاكرة إلى معبد « بعل » في قرطاجنة ... تلك هي القديسة تضطرب تحت يد هملكار الذي يقدمها إلى الآلهة طاعة ونسكا .. وتلك هي روما تضطرب تحت يد ابنه هانيبال الذي يقدمها إلى أبيه قرباناً زكياً . . وهؤلاء هم الرسل مقبلين على مدينة التلال السبعة يرجفون بالأخبار ويزعزعون العزمات من رهبة الوعيد ، ويضطرب الأمر بين الرومان اضطرابا شديدا ، ويقذفون بجيوشهم إلى هانيبال في شجاعة واقدام حقيقين بالاعجاب . . والقرطاجني متربص يفني الجيوش فناء ، ويبتلع القادة ابتلاعاً . وهذه تربيا تشهد يوم أجبر هانيبال العدو على النزول إلى الميدان في البكرة القارسة والشمس لا تزال في خدرها ، وكيف انسابت الكمائن من فرسان نوميديا على جوانب الجيش الروماني فأكلته أكلا ... وهذه ترازمين تذكر يومها العبوس من شتاء سنة ٢١٧ .. هذا هانيبال يخبيء جنوده في باطن الجبل المطل على أمواه البحيرة ، ويترك منهم نفرا يناوش القنصل فلامينيوس ، ويتقدم الروم ثم يندفعون اندفاعاً شديدا .. فاذا انتهوا إلى ساحل البحيرة فقد ألقوا أنفسهم في وابل من نبال النار ، ونار من فرسان النوميديين ، وإذا العدو يسد عليه طريق الرجوع ، وإذا الماء يعين عليهم الخصم .. وإذا هزيمة ساحقة لم ينج منها إلا نفر مضى إلى روما يزلزل أهلها بالمصيبة النازلة ، والفاجعة التي لم تذر .. وهؤلاء أهل المدينة مروعين ، قد انتابهم هلع شديد .. إذ تراءى إلى أسماعهم أن الرجل قاصد اليهم .. ثم ها هو ذا على أميال من روما .. ليس من الموت بد ! ولكن هانيبال لا يتقدم ، إنما يطوي عن المدينة ويتجه إلى الجنوب

ترى ماذا صد هانيبال عن روما ؟ كانت الحصون واهنة والجيوش منكسرة ولا يكلف الاستيلاء على المدينة إلا أقل الجهد .. ولكن هانيبال كان يرجو شيئاً آخر .. كان لا يريد أن يقتل القريسة دفعة واحدة وإنما يقطع أعضاءها عضواً عضواً ، ويمزق أشلاءها شلواً شلواً : ثم يدعها تموت ؛ كان يرجو أن يمزق جسد روما جزءاً جزءاً ويبتر مستعمراتها عنها على مهل ! لم يمزق الرومان أملاك قرطاجنة واحدة فواحدة لكي تموت على مهل . هكذا كان يريد أن ينفذ انتقامه الشديد — ولهذا مضى يثير أنصار روما ويؤلب عليها أحلافها .. إنه ليعلن أنه أقبل ليحارب الرومان لا الايطاليين ، وإنه ليطلق الأسرى الايطاليين دون الرومان ، وإنه ليكسب من هذا كسباً عظيما .. هذه « كبوا » تسارع اليه بقواتها وأحلافها .. وهذه المدن الأغريقية في « تارنتم » تعلن ولاءها ... وهؤلاء هم الرومان يشتد بهم الخوف فيختارون «فابيوس» لهم قنصلاً .. فيختط لمحاربة هانيبال خطة صارت علماً عليه في التاريخ : هي أن يجنب نفسه وجيوشه لقاء العدو في موقعة حاسمة .. بل يناوشه ويتخطف جنوده ، ويقفل طريق الامداد من الشمال .. ويمضي على ذلك حتى يضعف أمره ويفني جنوده .. ولكن الرومان لا يطيقون صبراً .. إن هانيبال ليفسد عليهم جيرانهم وأتباعهم .. ويتلف مزارعهم ويهدم حصونهم

ويمضى من بلد الى بلد ، تاركا جنوده يأتون من الأمر ما يحبون ويصيبون من العدو ما تصل إليــه أيديهم ، حتى يضيق ذرع اللاتين فيعزلوا فابيوس ويولوا قنصلا آخر يمضى مسرعاً حتى يلقى هانيبال فى « كانى » على ساحل الأدرياتيك ، وهناك تظهر قدرة الرجــل فى الحرب فى أجل آياتها . . . إنه ليصف جنوده صفوفاً طويلة تــكاد تخفى جناحى الفرسان . . وإنه ليلقى العدو وينثنى قلب جيشه حتى يصير الصف نصف دائرة تحتوى الرومان ثم يقبل الفرسان فيقضون على العدو قضاء مبرماً

ندع هانيبال فى سيره إلى جنوب شبه الجزيرة ونخف إلى روما لنشهد اضطراب الشيوخ وهياج الشعب واشــتداد الأمر ولنشهد مشهداً من أصــدق مشاهد الرجولة القوية والبطولة الخالدة .. إن « آل سيبيو » لا يخفت لهم صوت ولا يضعف لهم أمل . . لقد مات الاخوان فى وعور اسبانيا ، وها فى طريقهما إلى بلادهما بعد أن استوليا على « قرطاجنة الصــغيرة » قاعدة هانيبال فى ايبريا ، وشطرا شــبه الجزيرة كلها عن القرطاجنى حتى حصروه حصاراً شديداً .. وهاهوذا أخوه « هازدروبال » أخو هانيبال يجمع له ما تيسر من فلول المرتزقة ويمضى إلى إيطاليا فيلقاه الرومان ويفتكون به ويقتلونه . . ثم يحملون رأســه إلى أخيه ويلقون به بين يديه

ثم ينهض سيبيو الصغير ويقود حملة من أعنف حملات التاريخ ؛ فهذا فتى فى الخامسة والعشرين ولــكنه رومانى عزيز . . إنه ليقطع شــبه الجزيرة على عجل . . . ثم يركب البحر الى صقلية ثم يخف الى أفريقية وينزل على مقربة من قرطاجنة ثم يبدأ يصنع فى أفريقية ما يصنعه هانيبال فى ايطاليا . !

* * *

هنالك يتأمل هانيبال رأس أخيه الشهيد ويستمع إلى أخبار سيبيو فتأكل الحسرة قلبه ويفزع على مصير قرطاجنة ، ويسرع لنجدتها . . ولا تــكاد قدمه تمس ثرى افريقية . . حتى تسرع نحو سيبيو . . فيمضى هذا أمامه . . ولم يكن أخطر على الجيش الرومانى من هــذا المضى الذى يباعد ما بينه وبين الشاطئ . . ولــكن .. انظر إنه ليثير النوميديين على قرطاجنة ، إنه ليطويهم تحت رايته حلفاءَ أقوياءَ . . ثم يثبت لهانيبال عنــد « زاما » ويرسل فرسانه فى طرفى مشابه . . ويصف الجنود صفاً طويلاً ، ويباعد بين الجندى والجندى حتى ليدع بينهما طريقاً رحباً . . ثم يقبل هانيبال .. ويدور فرسانه فاذا هم وجهاً لوجه أمام فرسان سيبيو.. فيفسحون لهم الطريق ، فيندفع هؤلاء إلى ماوراء الجيش وهناك ينتظرون . . وتشتد المعركة ، ويثار النقع ، حتى إذا بلغ الأعياء من جيش قرطاجنة أقبــل فرسان الرومان فقضوا عليهم قضاء أخيراً . .

أليست هذه أساليب هانيبال ؟ أليست تلك خطته فى كانى ؟ وإنها لبينة واضحة على عبقريته ، وآية باقية على ما خلف للعالم من تراث

* * *

ويخف هانيبال إلى قرطاجنة ، ويأمر بأسوارها أن تقفل ويسودها الهرج والاضطراب ، ويجتمع مجلسها ويتعاقب الخطباء منادين بالحرب والثأر . . ولــكن الرجل لا يطيق . . إنه يعرف خصمه جيداً فينهض ويسكت الخطيب . . ويعتذر لمواطنيه عن هذه الجفوة التى لا محيص له عنها بعد ست وثلاثين ســنة فى ميادين الحروب .. ثم يوافق على شروط الصلح التى قدمها سيبيو

ثم يبدأ صراع هو أشــبه بصراع المائة يوم بين نابليون وخصومه . . ولــكنه يطول سبع سنوات ، يصر الشيوخ فى الســناتو على القضاء على الرجل .. ويطلبونه ويجدون فى طلبه . . وهو لا يفقد الأمل فى الغلبة عليهم والانتقام منهم . . لقد فشل فى أن يثير عليهم الشرب ، فلم لا يقيم عليهم قيامة الشرق ؟ . . ها هو ذا يخف إلى بلده « صور » ، فاذا هى ترتعد فرقاً من روما وجيوشها فيفصل عنها إلى « إنطاكية » حيث يستقبله ملكها انيوكس ، إذ كان بعد حملته على روما . . ويدبر معه الأمر . . ويرسم معه مشروعاً خطيراً .. ولا يكادان يشرعان فى العمل حتى يفاجئهما الرومان فيقضوا على أنيوكس فى داره فيفر إلى بيتنيا حتى يلقاه ملكها مرحباً .. ويأويه ويكرمه

* * *

ولــكن الرومان لا يسكتون عنه . . ويطلبونه ويجدون فى طلبــه . . وإنه لجالس ذات يوم فى ملجئه . . إذ أحس اضطراباً وسمع وقع أقدام جنود يقتربون منه . . فنادى بخادمه . . وأمر بالسم فأتى به إليه . . وقال وهو يدنى الكأس من شــفتيه : « لــكى تستريح روما إذا كان لا يرضيها أن تترك شيخاً فى السبعين يموت على مهل »

حسين مؤنس